اللغة العربية بين التأثر والتأثير

بقلم : محمد السيد علي بلاسي

إن تبادل التأثير والتأثر بين اللغات قانون اجتماعي إنساني، وإن اقتراض بعض اللغات من بعض ظاهرة إنسانية أقام عليها فقهاء اللغة المحدثون أدلة لاتحصى. والعربية في هذا المضمار ليست بدعا من اللغات الإنسانية، فهي جميعا تتبادل التأثر والتأثير، وهي جميعا تقرض غيرها وتقترض منه، متى تجاورت أو اتصل بعضها ببعض على أي وجه، وبأي سبب، ولأي غاية.(1) فإنه إذا احتكت لغة بأخرى أثرت كل منهما على صاحبتها؛ حتى ذهب بعض علماء اللغة بناء على هذه الحقيقة: إلى أنه لا توجد لغة غير مختلطة.(2)

فما من لغة قومية تستطيع الزعم أنها بريئة من كل دخيل عليها. حظ هذا الزعم صنو حظ العرقية. فلا وجود لعرقية صافية؛ إذ لا وجود لدم صاف. وهكذا اللغات فإنها تتداخل بعضها في بعض، بحكم تفاعل الحضارات؛ وهكذا تعكس واقع الشعوب.(3)

وقصارى القول : متى أتيح للغتين متجاورتين فرص للاحتكاك لا مناص من تأثر كل منهما بالأخرى، سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء. غير أن هذا التأثر يختلف في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية. فإذا كان الفناء قد حق على إحداهما فإنها لاتقوى على مقاومة ما تقذفها به الثانية من مفردات وقواعد وأساليب، ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها، فيتخمها ويضعف بنيتها فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئا فشيئا حتى تزول؛ على حين أن الغالبة تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى مهما كبرت كميته وعظم شأنه، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها، فتزداد به قوة ونشاطا، وبدون أن تدع له مجالا للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي، كما كان شأن الإنجليزية والفرنسية الغالبتين من اللهجات السلتية المغلوبة بإيرلندا وويلز ومقاطعة البريتون. وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما، تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتقاوم آثاره الهدامة، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية، موفورة القوى سليمة البناء: كما كان شأن الفارسية

مع التركية، والفرنسية مع الإيطالية والإسبانية والبرتغالية.[4]

هذا، ومن المقرر أن المفردات التي تنتقل من لغة إلى غيرها من اللغات التي تلتقي بها؛ يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل تلك اللغة أو امتازوا بإنتاجها وفي سبقهم الغير في ابتكارها.

لذا فقد انتقل إلى اليونانية ومنها إلى اللاتينية كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشؤون الملاحة البحرية؛ لأن الفينيقيين هم الذين سبقوا غيرهم من الشعوب في هذا المضمار.

وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيرا من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع وما إليها؛ وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين في جميع هذه النواحي.

ولهذا السبب انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشؤون الحرب، وكثير من الكلمات الإيطالية المتصلة بالموسيقى والآثار والفنون الجميلة.

وكذلك انتقل إلى اللغات الأوربية وغيرها، المفردات الإنجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام.

ومن أجل هذا؛ تنقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماؤها في لغة المناطق التي ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بإنتاجها؛ وذلك ككلمة «الشاي» ـ مثلا ـ فقد انتقلت إلى معظم لغات العالم من جزر ماليزيا التي كانت المصدر الأول لهذه المادة.[5]

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن الألفاظ الدخيلة التي تقتبسها لغة ما من أخرى، ينالها كثير من التحريف في أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها، فتبعد في جميع النواحي عن صورتها القديمة. وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشىء من الصراع بين لغتين كتب لإحداهما النصر، بل هو ظاهرة عامة تتحقق في جميع الحالات التي يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى.[6]

مدى تأثير اللغات في اللغة العربية :

سلكت اللغة العربية مسلك غيرها من اللغات، فاقترضت قبل الإسلام وبعده ألفاظا أجنبية كثيرة، ولم يجد العرب القدماء في هذا غضاضة أو ضيرا بلغتهم التي أحبوها واعتزوا بها.[7] وليس هذا بعيب حقا، يقول الأستاذ العقاد: فإن اللغة من اللغات يعيبها على الأغلب الأعم نقصان: نقص في المفردات، ونقص في أصول التعبير. والنقص في المفردات مستدرك؛ لأنها تزاد بالاقتباس والنقل والتجديد. وما من لغة إلا وهي فقيرة لو سقط منها ما لم يكن فيها قبل بضعة قرون. أما النقص المعيب حقا فهو نقص الأصول والقواعد الأساسية في تكوين اللغة، ومن قبيله ما نسب إلى لغتنا من نقص الدلالة على الزمن في صوره المختلفة.

وإنه لنقص خطير لو صحت نسبته إليها. ولكنه بحمد الله غير صحيح. ويحق لنا أن نقول: إن هذه اللغة العربية لغة الزمن لأنها تحسن التعبير عنه، ولغة الزمن لأنها قادرة على مسايرة الزمن في عصرنا هذا وفيما يلي من عصور. (8)

هذا، وإن العربية لتفترق عن غيرها من اللغات ببراعتها في تمثلها للكلام الأجنبي، عن طريق صوغه على أوزانها، وإنزاله على أحكامها، وجعله جزءا لا يتجزأ من عناصر التعبير فيها... (9) على أن العرب كانوا في اقتراضهم لتلك الألفاظ يعمدون في أغلب الحالات إلى تلك التي تعبر عن أمور غير مألوفة في شبه الجزيرة، من أزهار وطيور وخمور وأدوات منزلية، وغير ذلك من كلمات تتطلبها مظاهر الحضارة والمدنية لدى الأمم العريقة التي كانت تتاخم الحدود العربية كالفرس واليونان. أي أن استعارتهم في مثل هذه الحالات كانت استعارة ضرورة وحاجة ملحة على أنهم في القليل من الأحيان قد اقتبسوا أيضا بعض تلك الألفاظ الأجنبية التي لها نظائر في لغتهم في المعنى والدلالة، إما لإعجابهم بأصحاب هذه الألفاظ والشعور بأنهم أرقى ثقافة وحضارة أو للدعاية والتفكه. (10)

ويحدثنا التاريخ عن صلة العرب بالأمم المتاخمة لهم؛ لجلب البضائع، أو التزود بالثقافات التي تمتاز بها بلادهم. ويشير إلى أنه قد عظم ارتباطهم بالآراميين في الشمال، وكان من أثر ذلك أن انتقل إلى العربية كثير من المفردات الآرامية، وبخاصة الألفاظ المعبرة عن مظاهر الحضارة والرقي. كما عظم اتصالهم باليمنيين في الجنوب؛ لأن الارتباطات الثقافية والاقتصادية والدينية كانت على جانب كبير بين الشعبين، وفضلا عن ذلك، فقد رحل كثير من القبائل اليمنية إلى الحجاز، وخاصة قبائل معين وخزاعة والأوس والخزرج. كما أن صلة اليمنيين بالأحباش كانت على جانب كبير من القوة في النواحي الثقافية والتجارية؛ فهيأ اتصال الشعبين المجال لاحتكاك اللغتين.

ولما أقبل الإسلام، وعظمت الفتوح شرقا وغربا، أدى ذلك إلى الارتباط الوثيق بين العرب وبين الأمم الداخلة في حوزتهم؛ فاتصلت العربية بالفارسية، والسريانية، واليونانية، والتركية، والكردية، والقبطية، والبربرية. وكان أثر ذلك الاتصال كبيرا بين العربية والفارسية، ويليها اتصالها بالسريانية ثم باليونانية. (11)

ونتيجة لاتصال العرب بغيرهم في نواحي العلوم والثقافات اتسعت العربية للتعبير عن شتى الفنون والمعارف بحيث أصبح لها شأنها بما وضعته من مفردات جديدة، وما اقتبسته من اللغات الأخرى. (12)

على أنه ينبغي أن نشير هنا: إلى أن غاية ما

أخذته العربية من غيرها من اللغات بعض ألفاظ مفردة من باب الأسماء لايتجاوز بعض المئين، وأكثرها من الأسماء الجامدة كخز وديباج وإستبرق وترياق وفالوذج، مما وجدوه عند غيرهم ولم يوجد عندهم.

أما علماء هذه الأمة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الأولى ونقلوا العلم إليها من الفارسية أو اليونانية أو السريانية، فلم يحتاجوا إلا إلى بعض أسماء حكمها حكم الألفاظ التي ألمعنا إليها سابقا. (13)

كما ينبغي أن نشير إلى أن العربية ليست بدعا من اللغات فهي تقرضها مثلما تقترض منها، وتخضع في ذلك كله لقانون اجتماعي لغوي هو تبادل التأثير والتأثر بين اللغات. إلا أن العربية تمتاز عن غيرها بظاهرة الإقراض أكثر من الاقتراض لأسباب وعوامل تتعلق بجوها الخاص ونسيجها الذاتي ومنشئها الأصيل. (14)

ووضوح هذه المقارنة بين العربية واللغات الأوربية أشد جلاء، حيث تحفل لغات أوربية كثيرة بكلمات وعبارات استعارتها من لغتنا العربية، تقدر بالمئات بل بالآلاف. (15)

ويقرر هذا الواقع الأب رفائيل نخلة اليسوعي، حيث يقارن بين العربية واللغات الأخرى من حيث تأثيرها وامتداد سلطانها، فيذكر أن اليونانية واللاتينية لم يكن لهما تأثير يذكر إلا في لغات أوربا. وكذلك الفرنسية والإنجليزية لم يتجاوز نفوذهما العام حدود تأثير اليونانية واللاتينية... ويشير إلى أنه بعكس ذلك نرى للعربية ـ مع تناقص سطوع شمس آدابها عدة عصور قبل القرن التاسع عشر ـ تأثيرا واضحا غير يسير في نحو مائة من اللغات واللهجات الناطق بها أرقى الشعوب في أنحاء أوربا وأمريكا وأستراليا ونحو خمسين من شعوب آسيا وإفريقيا. إن هذا المجد المختص بلغة الضاد لمن العجب العجاب؛ حيث يثير قوى العقل لاكتشاف أسبابه؟!! (16)

ويرى المستشرق المسلم د. عبد الكريم جرمانوس ـ على ما حكاه عنه بعض الباحثين ـ أن من أسباب ذلك: «الإسلام»؛ حيث يعتبر سندا هاما للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة، على نقيض ماحدث للغات القديمة كاللاتينية، حيث انزوت تماما بين جدران المعابد وكادت تنقرض.

ويضيف قائلا : وقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثا، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافا من الكلمات العربية وازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء. (17)

وثمة سبب هام لانتشار العربية هو : تفوقها اللغوي؛ فالعربية لغة طيعة أعانها

إيجازها ودقتها على أن تسد حاجات البسطاء المثقفين من الناس، ومطالب البيئات البدائية والمتحضرة.[18]

من ثم؛ فإنني أقول : إن اللغة العربية لغة فاتحة تحل أينما حلّ أهلوها![19]

الهوامش

(1) دراسات في فقه اللغة : د. صبحي الصالح، ص 314، 315 ـ بتصرف ـ، ط. العاشرة ـ دار العلم للملايين سنة 1983م. وراجع: من أسرار اللغة: د.إبراهيم أنيس، ص109، وما بعدها، الطبعة الثالثة ـ الأنجلو المصرية سنة 1966م.

(2) اللغة : فندريس، ص 349 ـ بتصرف ـ، ترجمة الدواخلي والقصاص، لجنة البيان العربي.

(3) دفاعا عن اللغة العربية : كمال الحاج، ص 143، منشورات عويدات، ط. الأولى سنة 1959م.

(4) علم اللغة : د. علي عبد الواحد وافي، ص 246، 247، ط. التاسعة ـ دار نهضة مصر بالفجالة، ولمزيد من التفصيل راجع ص 240 وما بعدها. وراجع أيضا: الفصحى ولهجاتها: د.عبد الفتاح البركاوي، ص136، الطبعة الأولى.

(5) اللغة والمجتمع : د. علي عبد الواحد وافي، ص23ـ25 ـ بتصرف، ط. دار إحياء الكتب العربية.

(6) علم اللغة : د. علي عبد الواحد وافي، ص 236 ـ بتصرف ـ

(7) من أسرار اللغة : د. إبراهيم أنيس، ص 109.

(8) اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد، ص 97، ط. مكتبة غريب.

(9) دراسات في فقه اللغة : د. صبحي الصالح، ص 314 ـ بتصرف ـ

(10) من أسرار اللغة : د. إبراهيم أنيس، ص 109 ـ بتصرف يسير ـ.

(11) فقه اللغة العربية : د. إبراهيم محمد نجا، ص 77، 78، ط. أولى ـ مطبعة السعادة سنة 1965م.

(12) قضية التعريب في القرآن الكريم: د. عبد الغفار هلال، ص25، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام عدد ذي القعدة 1399هـ.

(13) الفصحى لغة القرآن : أنور الجندي، ص 14 ـ بتصرف يسير ـ، الناشر دار الكتاب اللبناني سنة 1402هـ (الموسوعة الإسلامية العربية «10»).

(14) دراسات في فقه اللغة : د. صبحي الصالح، ص 348، 349 ـ بتصرف يسير ـ.

(15) انظر مثلا : بيير جيرو : الكلمات الأجنبية «Les mots étrangers» سلسلة "Que sais-je?"، الذي يتناول الكلمات العربية في اللغة الفرنسية ويقدرها بمائتين وثمانين كلمة. وانظر المستشرقة زيجريد هونكة: شمس الله تسطع على الغرب، والذي تذكر فيه أكثر من مائتين وخمسين كلمة عربية في اللغة الألمانية. وانظر دوزي: قائمة بالكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية، والذي يقدر فيه عدد الكلمات العربية بما يربى على ألف وخمسمائة كلمة. راجع: كلمات عربية إسلامية في اللغة الإنجليزية: د.أحمد شفيق الخطيب. مقال منشور بمجلة الفيصل، العدد (150) ذي الحجة 1409هـ، هامش (1) ص29. ولمزيد من التفصيل راجع: أسماء عربية للنباتات في اللغة الأوربية: محمد عبد القادر الفقي. مقال منشور بالمجلة العربية، العدد (103) شعبان 1406هـ، ص106، 107. وإطلالة على معالم التأثير العربي في اللغة الأوربية: عادل البطوسي المجلة العربية، العدد (120) محرم 1408هـ، ص90، 91. واللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة في عالمنا الإسلامي: د.كارم السيد غنيم. بحث منشور في مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع عشر ـ العدد الرابع، يناير ـ مارس 1989م، ص910 وما بعدها، تجد المزيد من الإيضاح.

(16) غرائب اللغة العربية: رفائيل نخلة اليسوعي، ص119 ـ بتصرف ـ

(17) اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة : د. كارم السيد غنيم، مجلة عالم الفكر، عدد يناير ـ مارس 1989م، ص919.

(18) قبس من وحي اللغة : د. شعبان عبد العظيم، ص 187 ـ بتصرف ـ، ط. أولى ـ الأمانة بمصر سنة 1403هـ.

(19) راجع : المرجع السابق، ص186ـ188وتاريخ اللغات السامية، ص214 وما بعدها.